وحيد أنا، أيها الحب
قصائد مختارة للشاعر الكولومبي خوان مانويل روكا*

ترجمة وليد السويركي*

فنّ الوقت

يظلّ الوقت حبيساً بين الكتب،

وبمعجزة هذا الأسر،

يواصل هيراقليطس الاستحمام في النهر ذاته؛

في الصفحة ذاتها،

أمّا أنتِ،

فستظلّين عاريةً للأبد؛ في قصيدتي.

أغنية صانع المرايا

للرعب أضيف رعباً أكبر

وجمالاً أكبر للجمال.

---

* كاتب ومترجم

التقطُ من الشارع قمر الزئبق:

فتنعكس السماء في المرآة وتتراقص السطوح مثل لوحة لشاغال

وحين تدخل المرآة بيتاً آخر، ستمحو الوجوه الأليفة؛

ولأنّ المرايا لا تبوح بماضيها،فلن تشي بسكانّها السابقين

بعض الناس يبني سجوناً؛فيصنع للأقفاص القضبانَ،

أمّا أنا ، فأصنع المرايا:

للرعب أضيف رعباً أكبر

وجمالاً أكبر للجمال.

عدْو

كان لديّ حصان. كان له عُرفٌ كثيف الشَّعر،

وفي الليل، وعينان نهاريتان ..

كان لديّ حصان، قبل أن أسمّيه مرآةً

في بيتِ أعمى.

كنّا نجوب بلاداً سريّةً، مدناً هاربةً من مقدم الصيف،

أزهاراً جلديّةً في الوادي المعتم؛و لياليَ بقوارب مثقلةً بالصّمت.

كان لديّ حصان، قبل الغناء أمام الصمّ، قبل الحديث عن الوطن مع المنفيّ،

لم أكن قد غنيّت أغنية منتصف الليل بعدُ،

معه ذرعتُ باحات الفجر البيضاء، مصغياً لقدّاس الماء،

وما زلت أخلط ،حتّى اللحظةِ، بين عدْوه والنبض في صدري.

أيّام كالإبَر

وحيدٌ أنا، أيّها الحب!

حدّ أنّه لا يصعد إلى غرفتي ،خطوةً بعد خطوة،

سوى

السلّم الآيل للسقوط .

العجائز

شبه نائمِين،

في مواجهة شمس الجنون الجارحة،

يصغون لوردة صمتهم تكبر،

وينامون موتهم :

طائر الذكرى الأعمى

الذي يدقّ جدران الحلم.

يوميات الليل

إلى مارغريتا كاردونا

آن يتسلّل الحلمُ

مثل لصّ عبر دروب من صوف،

يشرب الشعراء ماء هامساً

فيما يتحدّثون عن العتمة؛

عن العصر المظلم الذي يحيط بنا.

وساعة يلفح القطارُ القمرَ،

يستسلم ملاكُ بيت الهوى لمصيره،

فتعزف الفرقة لحناً شاكياً،

و يغوص في الليل مهرٌ بلون المرايا

هازّاً ذيله النيزكيّ،

أيّ فارس لامرئيٍّ يمتطيه؟

رسائل الغرقى

في الغرفة الصغيرة،حيث أحيا مثل يونس في بطن الحوت،

يخطر لي: ربّما كانت القصائد رسائل يبعث بها غريق؛

زجاجات محمّلة بصرخاتٍ كتبت بركاكة،

علّها تمضي من بحور الصمت إلى شواطىء النسيان،

ها أنا أرمي بزجاجة، ثمّ بأخرى،

وأُتبعها أخرى مسكونةً بمخاوفي؛

في الغرفة الصغيرة ،حيث أحيا مثل يونس في بطن الحوت،

لم يبق إلّا القليل من رسائل الغرقى.

فنّ الخدمة

لنقص السّهام،

كان الشحاذّون يرمون النبلاء بجروحهم،

ولكن كان ثمّة جنس آخر من المتسوّلين،

أشدّ بؤساً، يسرق جروح الأخرين

ويبيعها في ساحة السوق؛

بأسلحةٍ جدّ بدائيّةٍ ،

اجتاز الفقراءُ ليل القرون الوسطى.

سيرة لا أحد

يستحق الذكر مجدُ " لا أحد": فلا أسلاف له تحت الشمس، أو تحت المطر،

لا جذور له في الشرق أو في الغرب، هو ابن "لا أحد"؛ وحفيد "لا أحد"، ووالد "لا أحد"؛

قنصلُ النسيان الصغيرُ.

هل ترون تلك البقعة الخالية في صورة العائلة؛ ذلك الفراغ بين الأقارب المبجّلين؟ إنّه «لاأحد"، بلا سلفٍ أو خلف.

يستحقّ مجدُ "لا أحد" الذّكر قبل أول صبح في التاريخ؛ فهو رائد البشر الذين باتوا اليوم عشباً ، ورائد آباءِ الآباء الذين باتوا شمعاً بلا ذبالة،

فلنحتفل ،إذن، ب"لا أحد" الذي يجعلنا نظنّ أنّنا أحد! .

هجائية السلطة

بتيجان من ثلج

يعبر الملوك تحت الشمس.

أمثولة الفراغ

في الكنيسة الصغيرة المعتمة،

وبين روائح الشموع وقطعة من الأبدية،

طلب الواعظ من المؤمنين

أن يضعوا في سلّة الصدقات ما فاض عن حاجتهم؛

فملأوها بالفراغ.

الملاك المحاصر

في شوارع المدينة، كان يسكن قلبي المخطوف. كنت أرى رجالاً يعتمرون القبّعات، رجالاً صاخبين يدخلون ويخرجون من بيوت الهوى والقمار. شيئاً فشيئاً ، فقدت براءتي، وفقدت مع جناحيّ جنون السفر. لست على يقين، لكنّي أظنّه زبّال الحي من قال لي ذات ليلة إنّه عثر ،وسط الذباب الميت وإبر الحقن المستعملة، على ابتسامتي . البراءة ، مثل محطة قطار كنستها الريح مضت، ومعها جناحاي. في شوارع المدينة، كان يسكن قلبي، ملاكاً محاصراً لا يودّ أن يرى الجنّة ثانيةً.

فنّ العمى

١

من الشرفة، آن تتقصّى الشمس مناقيرَ طيورٍ زرق، كنّا أنا وأميّ نشاهد فناء بيت العميان.

٢

كان الأطفال العميان يستبدلون علبة من حديد أبيض بالكرة، ويلعبون بالصّوت. حين يتدحرج الصوت في مكان من الفناء، كانوا يطاردونه ويركلونه راكضين بين الظّلال.

٣

أنا وأمّي على الشرفة.في الأسفل،كان ملائكة العتمة يجرون كالمجانين خلف الصوت.كان بيتنا قفصاً، وكانت أمّي تتجوّل في الغرف وتنظّف العيون في صور موتاها ، فيما أنا أصغي لتسلّل الظلال إلى البيت.

٤

وسط الأشجار التي ترفع أزهارها المعتمة ،كان البيت يحمينا في المساءات العاصفة. في الليل ،مرتاحاً في حضن الحلم،

كنت أطارد ،كأعمى، خرير ماء تلك المرأة المجهولة.

٥

كنت أَنشُد الغريبة،دون أن يخطر لي أنّنا كلنا غرباء في الحلم. وكنت أتجوّل معتمراً قبعة بأجراسٍ، في حدائق مطيرةٍ، مصغياً لسقف أسطبل متململٍ ، أو لصوت أناجيل في الغرفة المجاورة.

٦

كان الليل يصنع لي وشما.

أمثولة العزلة

حين كانت عزلتي تنشطر، وتُسقط عنها قناع الوجه ،

كنت أصحبها في جولة على الشاطىء؛

وكثيراً ما دعوتها للرقص أو إلى مجمع العزلات العظيم

الذي يهرع إلى ملاعب الكرة.

ولكي لا آراها في حالتها الرثّة، اصطحبتها مرّة إلى الخيّاط.

وسط الأطقم الفارغة، بسط الخيّاط، بفمه المملوء بالدبابيس كدمية فودو،

قماشاً أسودعلى طاولته،

آخذ قياسات العزلة الشرسة، ورسم قالبها بالطبشور،

كانت بمقاس ظلّي تماما.

مكتبة العميان

باستغراقٍ، على طاولاتهم التي من خشب الماهاغوني،

يتصفّح بعض العميان الكتب، كما لو أنهم يعزفون البيانو؛

الكتب البيضاء التي تصف أزهار برايل نائيةَ العطرِ،

والليل الملموس الذي يداعب أصابعم عرفُ مهرٍ

وسط القصب.

كلمات متفرّقة تنفذ عبر أيديهم

في رحلةٍ عذبةٍ صوب الأُذن،

منكبّين على ثلج الورق، كمن يسمع الصمت يعدو

أو كمن يطلّ على الدهشة، يداعبون الكلمة كآلة موسيقية.

يهبط الليل في الجانب الآخر من المرآة،

وفي المكتبة التي يسودها السكون، تحمل خطى الليل همس الأساطير،

الهمس الذي يبلغ ضفتّي الكتاب،

وإذ يعودون من دهشتهم، تواصل الكلمات نبضها في الأصابع الذاكرة.

دعاء الكلمة

قد تأتي متوّجة بالفواكهة المجفّفةِ،

قد تكون الممرّضة التي التقيناها في الحربِ،

ندعوها بشفاهنا المشروخة، بأصوات مجروحةٍ و بيارق مرتّقة؛

قد يحدث أن تكون صمّاء مثل ديْر، فلا ينفع الكهنةَوالشّحاذينَ تضرّعهم إليها،

كما لا تجدي الخطابات التي تسمّيها، أكانت مدائح أم أهاجي.

ربّما كنتم تقرأون كتاباً لا ينتهي أو تهدهدون سُكْركُم وسط القشّ في هُريٍ من الأهراء.
المسيحيّون والموريسكيّون يبتهلون إليها كلّ يوم، و المعذّبون يمدّون لها حبلاً بين الفراغ والعدم،
فماذا لو كانت قطعةَ النقد التي داسها القطار، أو المفتاحَ الذي لاباب له وقد رمي في البحر،
أو رسالة الغريق في زجاجةٍ تحطّمت على السدّ؛
ربّما شاخت وباتت تهذي في أحد الأديرة، ربما فقدت الذاكرة ونسيت حروف اسمها التسعة؛
ربّما مزّقت الخارطة ، ولم تعد تعرف درب العودة،
أو أنّها شربت ،ملء الدلاء، حليبَ النسيان المرَّ،
وربّما تظهر على متن قارب ، حين لا يعود أحد في انتظارها،
ملفوفةبالضمادات، ومتّخذة مجدافيها عكّازين،
تلك الصمّاء : (كلمة) الأمل البائسة.

اعترافات البطل-الضدّ

لم أنجحْ قطّ في الوصول إلى أيّ مكان،
وحين كان المسافرون ذوو الشأن يغرقون في صمت عميق،
وهم يتأملّون الأرض كقرية ضائعة،
كنت أتأملّ ،في عتمة الخزائن، أقماراً صغيرة من النفتالين.
كان كثير من المتلهّفين يسقطون في المعركة، فيما أنا أُذلّ في المكاتب المظلمة؛
وكان مخترعوا آلة الأحلام يتناولون العشاء مع نساءِ أجمل من أنفسهن،
فيما تُقدّم لي حصّتي من الْيُتم، تحت سقوف يتساقط منها فوق الشراشف فتات الجبص.
لم أنجحْ قطّ في أن أذهب أبعد من زاوية الشارع،
لم أكن الملاكم الذي يبتسم للعتمة، عندما ينادي آخر جرس ،في مذبح الحلبة المربّعة، إلى الصلاة.

لم أملك الشجاعة الكافية لأطلق النار على الطاغية،

لم أمتط من غير سرج حصان الحرب الجموح،

ولم أعبر حقل الألغام لأنقذ قريةً ما،

لقد وهبت نفسي لمضغ خبز الهزائم كلّها، ذاك الذي بلا خميرة،

وفي بعض الليالي، وفيما أستمع لأغنية عن رحلات بعيدة ،

أتساءل: أين صاروا يا ترى، أولئك الذين بدّلوا جلودهم

أو بلادهم؟

*يعدّ خوان مانويل روكا المولود عام ١٩٤٦ واحداً من أبرز الأسماء الشعرية في كولومبيا وأمريكا اللاتينية، ترجمت أشعاره إلى لغات عدّة وحاز الكثير من الجوائز ومن بينها الجائزة الوطنية في القصة ١٩٩٣ وفي الشعر٢٠٠٤ وجائزتين على مستوى القارّة: فيكتور ساندوفال ،وخوسيه لثاما ليما في العام ٢٠٠٧، كما حصل على دكتوراة فخرية في الآداب من جامعة فاللي . لقد نجحّ" الهارب مبّكراً من الأكاديميا" كما يحلو له أن يقول(درس الفلسفة لثلاثة شهور فقط في الجامعة) في أن يحفر لنفسة مكانة أدبية رفيعة بفعل مواهبه الكتابية المتعددة، فهو شاعر وقاصّ وناقد وصحافي لامع. يرى روكا أن الشعر يستعيد أهميّته وبريقه ويصبح ضرباً من المقاومة الروحية، بعيداً عن الشعارات وزعيق الإيديولوجيا، في فترات الأزمات والكوارث التاريخية كالتي عاشتها كولومبيا خلال العقود الأخيرة(لأنّ الفن مثل إله اليهود ، يقتات على المحارق" كما يقول مستشهدا بعبارة فلوبير). ففي هذه الفترات يُطرح بقوة سؤال اللغة وأزمتها، إذ "ما جدوى كلمة " الخبز" إن كانت لا تطعم أحداً، ومامعنى كلمة الحريّة ، في فم سجين؟". وهنا، يلجأ الشعر إلى المفارقة والسخرية والدعابة السوداء لمقاومة الواقع العنيف المرعب وتجاوزه. من أعماله : ذاكرة الماء ١٩٧٣، قمر العميان ١٩٩٠، مونولوجات ١٩٩٤ ، فرضيّات" لا أحد" ٢٠٠٥، انجيل الفقراء٢٠٠٩، و لصوص الليل ٢٠١٠.